جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ

مقياس تاريخ المشرق الإسلامي ق2-8هـ/8-14م

د. بلال ساحلي

البريد الالكتروني: b.sahli@univ-dbkm.dz

المحاضرة الرابعة السداسي الثاني:

3-2 طبقات المجتمع في العهد الفاطمي:

كان المجتمع في العهد الفاطمي ينقسم عموماً إلى صنفين من الناس من حيث المكانة الاجتماعية، بحيث تمتع الصنف الأول وهو "الطبقة الخاصة" بمظاهر الثراء وحيازة الضياع والإقطاعات لأن هذه الطبقة ضمت الأسرة الحاكمة وأرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الصنائع، في المقابل كانت "الطبقة العامة" تمثل المعدومين ومحدودي الدخل مثل صغار التجار والعامة والعبيد والجواري .

3-2-1 الطبقة الخاصة:

أ- **الأسرة الحاكمة:** تتمتع الأسر الحاكمة وحاشيتها في أنظمة العصور الوسطى بالثراء والنفوذ والأبهة، لأنها تأتي على رأس هرم النسيج الاجتماعي، وتضع كل مقدرات الدولة في خدمتها وتوسيع حدود ملكها، وهو ما كان عليه خلفاء الدولة الفاطمية الذين امتلكوا سلسلة من القصور، يصفها الإمام المقريزي قائلا: (اعلم أنه كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر منها: القصر الكبير الشرقي، الذي وضعه القائد جوهر الصقلي عندما أناخ في موضع القاهرة، ومنها القصر الصغير الغربي، والقصر اليافعي، وقصر الذهب، وقصر الأقيال، وقصر الشجرة، وقصر الشوك، وقصر الزمرد، وقصر النسيم، وقصر الحريم، وقصر البحر) .

وهذه القصور عادة ما تتربع على مساحات شاسعة وتشرف على المناظر الجميلة أو تتوسط مدينة القاهرة مثل قصر الخليفة أو السلطان، كما أنها تتمتع بالحراسة الشديدة، ويتزاحم فيها الخدم والعبيد والجواري، وكانت الاحتفالات مناسبة تتجلى فيها مظاهر الثراء والترف ففي سنة (439هـ/1047م) ولد للخليفة ولد، فأمر الناس بإقامة الأفراح، وزُيِّنت الأسواق وشوار المدينة بشكل يعجز الانسان على وصفه .

وأما بالنسبة لمصادر هذه الثروة فهي متنوعة مثل أموال الجباية والضرائب والفيء والخراج وغنائم الحروب وكل ما من شأنه أن يصب في بيت المال، كما أن الفتن والاضطرابات كانت مناسبة لتحصيل المكاسب المادية ففي زمن الفتنة التي وقعت بين الأتراك والمغاربة استغلها الوزير ابن عمار فجمع ثروة طائلة قام بنهبها، وفي حادثة مقتل الوزير برجوان التركي كان من بين ممتلكاته ثاثون ألف دينار من الذهب، وآلاف القطع من الملابس الحريرية، وخمسمئة رأس من الخيل والبغال .

ب- **أرباب السيوف:** يقصد بأرباب السيوف الأفراد المنتمين للجيش وأجهزة أمن الدولة من أصحاب الرتب السامية والمناصب القيادية والوظائف الحساسة القريبة من الخليفة، وقسم القلقشندي أرباب السيوف إلى نوعين، النوع الأول عامة الجند وهي تسعة وظائف، أما النوع الثاني فهي وظائف الخواص، فبالنسبة لوظائف النوع الأول هي: "الوزارة" بنوعيها سواء كانت مقيدة أو مطلقة، والثانية هي "صاحب الباب" ويقال لها الوزارة الصغرى، والثالثة "الاسفهلارية" وصاحبها مختص بأمر الأجناد وشؤونهم، والرابعة "حامل المظلة" في المواصم العظام وكان لقبه: (الأمير عظيم الدولة وسيفها حامل المظلة)، كانت تمنح له بذلة مذهبة في العيد، والخامسة "حامل سيف الخليفة" في المواكب التي تحمل فيها المظلة، السادسة "حامل رمح الخليفة" في المواكب التي تحمل فيها المظلة، السابعة "حامل رمح الخليفة في المواكب"، الثامنة "ولاية القاهرة"، التاسعة "ولاية مصر" وهي مرتبة أقل شأناً من ولاية القاهرة.

هذا بالنسبة للنوع الأول الذي هو "عامة الجند"، أما وظائف النوع الثاني فهي "وظائف الخواص" وهي "شد التاج"، و"صاحب المجلس"، و"صاحب الرسالة"، و"زمام القصور"، و"صاحب بيت المال"، و"صاحب الدفتر"، و"حامل الدوات"، و"نقابة الطالبيين أو الأشراف".

وكان أجل أرباب السيوف "خدمة الباب"، ويقال لمتولي هذه الخدمة: "صاحب الباب"، ويوصف بالمعظم، وكان أول من خدم بها: (خرناش) في أيام الخليفة الحافظ لدين الله (525-544هـ/ 1130-1149م) ومما يبين رفعة مكانته أنه ناب عن الخليفة وقت مرضه .

ج– أرباب الأقلام: المقصود بأرباب الأقلام هم كبار الموظفين ومستخدمي النظم الإدارية والوظائف الدينية، مثل الدواوين وجهاز القضاء وبعض الوظائف الأخرى القريبة من القصر السلطاني، مثل وظيفة الطراز الشريف الذي يختص بالخليفة، ومن الوظائف الدينية نجد قاضي القضاة، وهو بمثابة وزير العدل في عصرنا، ووظيفته تعيين القضاة وعزلهم ومرافقة الخليفة في مراسيم الدولة وغيرها من المهام، ومن أرباب الأقلام نجد المحتسب، ووكيل بيت المال، وأما بالنسبة للوظائف الديوانية نجد مثلا: "ديوان الإنشاء" وهي أشرف مناصب الكُتَّاب، وديوان الجيش والرواتب، وأصحاب هذه الوظائف تكون لهم أجور عالية ويتمتعون بمزايا القرب من السلطة وما توفره لهم من الجاه والعقارات والهدايا والعطايا والهبات والصلات .

د– أرباب الوظائف الصناعية: وهم كبار الصناع وخاصتهم، ممن يوظفهم القصر الفاطمي من الأطباء والخياطين والطرازين والمهندسين، وقد اهتم الخلفاء باستقطاب الصناع الماهرين للخدمة عندهم، وجعلوا لهم رواتب، مثلما فعل الخليفة المعز لدين الله (341-365هـ/953-975م) الذي جعل لكل ما هر في صنعة صانعاً للخاص وخصص لهم مكاناً برسمهم .

وتأتي وظيفة الأطباء على رأس هذا النوع من الوظائف لأن الخلفاء والأمراء والملوك كانوا عادة ما يستدعون إلى قصورهم كبار الأطباء الذين يشرفون على مراقبتهم بشكل دوري، أو يتم استدعاؤهم أثناء المرض، كما ظهر طبيب القصر، ومحله الجلوس على باب دار الخليفة، أو بالقاعدة المعروفة بقاعدة المذهب بالقصر، ودونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص، فيكتب لهم رقاعًا على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدا لهم، ولكل منهم الجاري والراتب على قدره.

3-2-2 الطبقة العامة:

أ- **صغار التجار:** مما لا شك فيه أن ميدان التجارة عرف نشاطاً كبيرا واستقطب فئات كثيرة في العهد الفاطمي، وهناك أسواق وشوارع تضاء فِيهَا الْقَنَادِيل دَائِما لِأَن الضَّوْء لَا يصل إِلَى أَرْضهَا ويسير فِيهَا النَّاس، وكانت جميع الظروف مهيئة في ظل الأمن والاستقرار الاقتصادي الذي عاشته الدولة الفاطمية خاصة في عصرها الأول، بدليل أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة كانوا لا يغلقون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر، لأنه لا أحد يجرؤ على مد يده إلى السلع والبضائع، كما أن التجار كانوا يتميزون بلبس الثياب الفضفاضة أو الواسعة، ويضعون على رؤسهم العمائم المدورة وعلى أكتافهم الطياليس الطويلة .

وقد اشتهر على التجار المصريين والصدق والأمانة في عمليات البيع والشراء وكانت أجهزة المحتسب تعاقب الغشاشين والكذابين لدرجة أن التاجر الكاذب يتعرض إلى عقوبات تأديبية قاسية مثل حمله على ظهر جمل والطواف به في شوارع المدينة وهو يحمل جرساً في يده، ويصرخ قائلا: (أنا أعاقَبُ وكل من يقول الكذب جزاؤه العقاب) .

وَيُعْطِي التُّجَّار فِي مصر من بقالين وعطارين وبائعي خردوات الأوعية اللَّازِمَة لما يبيعون من زجاج أَو خزف أَو ورق حَتَّى لَا يحْتَاج المشْتَرِي أَن يحمل مَعَه وعَاء.

ب- **الحرفيون والصناع:** تضم هذه الفئة المزارعين وصغار الصناع والحرفيين كالحدادين والنجارين والخياطين فقدكانت القاهرة في العهد الفاطمي مركزاً للصناعات المختلفة مثل النسيجية، فكان الفاطميون ينسجون كسوة الكعبة في السنوات التي تكون فيها الخطبة في الحج لخلفاء الدولة الفطمية، كما ساهم الخليفة المعز لدين الله (341-365هـ/953-975م) بإقامة دار الكسوة ويستقطب لها أمهر الصناع لتحصيل أجود الأقمشة والملابس .

كما اشتهر المصريون بالصناعات الفخارية، وتميزوا في هذه الحرفة حتى أصبحوا يتفنون فيها بشكل لا يصدق لدرجة أنهم يصنعون الفخار من كل نوع وهو لطيف وشفاف بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظَهرت من الدَّاخِل وتصنع مِنْهُ الكؤوس، والأقداح والأطباق وَغَيرهَا وهم يلونونها بِحَيْثُ تشبه البوقلمون فتظهر مُخْتَلف فِي كل جِهَة تكون بهَا ويصنعون بِمصْر قَوَارِير كالزبرجد فِي الصفاء والرقة ويبيعونها بالوزن .

وعادة ما يجتمع الصناع والحرفيون في مكان يسمى دار الوزير، حيث يقول ناصر خسرو وهو من رحالة القرن الخامس الهجري في كتابه: (سفر نامه): (وَرَأَيْت هُنَاكَ خَانا يُسمى دَار الْوَزِير لَا يُبَاع فِيهِ سوى الْقصب وَفِي الدّور الْأَسْفَل مِنْهُ يجلسن الخياطون وَفِي الْأَعْلَى الرفاءون).

ت- **العامة:** دائما ما كانت فئة العامة تمثل السواد الأعظم لكل مجتمع، وإذا كانت طبقة الخاصة تتمتع بلذة الحكم والمناصب وحيازة الثروة، فإن العامة تكابد مشاكل وهموم الحياة، لذلك سعى الفاطميون سعياً حثيثاً لتشييع المصريين عن طريق الاستثمار في فقرهم وحاجتهم .

و كانت العامة تكثر الشكاوى وترفعها للخليفة الحاكم وهو ما يؤكد غلاء الأسعار، حتى أنهم اشتكوا رداءة نوعية الخبز والرغيف الذي يباع في الأسواق، مثل هذه الحركات كانت تضطر الخليفة الحاكم كثير الركوب منفرداً من غيرموكب ليلاً ونهاراً، ويطوف بالأسواق للوقوف بنفسه على أحوال العامة، الذين يقدمون له الشكاوي والمظالم، ويجتهد بنفسه لإنصافهم .

ث- العبيد والجواري:

تعتبر فئة العبيد والإماء والموالي والجواري والرق من الفئات الأساسية المكونة لمجتمعات القرون الوسطى، ويمكن أن نضم لهذه الفئة العيارون وقطاع الطرق لأنهم يصنفون ضمن الفئات الدنيا، إلا أن العبيد والإماء أوضاعهم كانت تختلف من حضارة لأخرى، فقد كفل لهم الإسلام الكثير من الحقوق الأساسية، مثل الحق في الأكل والملبس والزواج وحتى الحرية إذا هم أرادوا المكاتبة، وبالنسبة للدولة الفاطمية فقد كان العبيد والجواري يتزاحمون في القصور الملكية التي تتطلب جيشاً من الموظفين والعمال في مختلف هياكلها، ويشير المقريزي أنه بلغ عدد الغلمان في قصر يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله أربعة آلاف غلام، والحظايا ثمانمئة، عدا الجواري .

وكان الغلمان تخصص لهم حجرات خاصة في القصور لذلك أطلق عليهم اسم "صبيان الحجرية" وقد استفاد هذا الصنف من العبيد من الامتيازات التي يوفرها لهم القرب من السلطة حتى أصبح بعضهم يوصف بالغنى الفاحش ففي سنة 451هـ/1060م توفيت إحدى جواري الأمير عبد الله بن المعز فخلفت أربعمائة ألف دينار، وقد كانوا يرتقون في مناصب خدمة الدولة لدرجة أن بعضهم كان يتدخل في الشؤون السياسية للدولة .

وكان الزواج من الجواري أمراً عاديا في ذلك العصر ومنهم يكون الخلفاء مثل زواج الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1021م) بأحد جواري أخته ست الملك، وكلما كانت الجارية جميلة أو تحسن الغناء ارتفع شأنها وبذلت الأموال الكبيرة للحصول عليها .